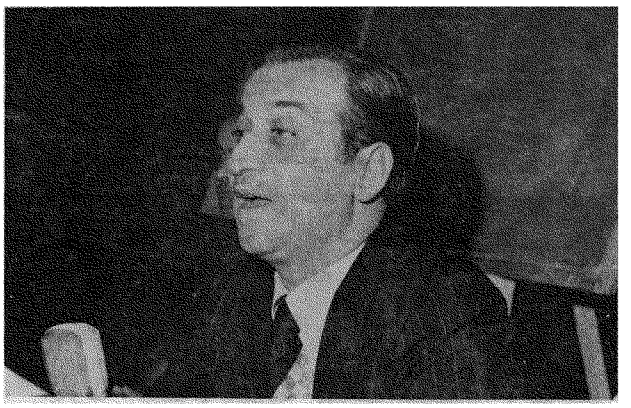

الآداب والحرية

رياض طه

أين كنا قبل خمس وعشرين سنة ؟

كان العرب سبعين مليونا ، وهم اليوم مائة واربعون مليونا .

وكان عدد أعضاء جامعة الدول العربية لا يزيد عن نصف العدد الحالي .

اما الاقطار المستقلة ، فانها لم تكن تتجاوز الربع . وكانت كبرى الدول العربية تطالب بجلاء الجيوش البريطانية عن اراضيها .

واما الوضع المالي الاقتصادي فقد كان في ادنى مستوى ـ يكفي أن مجموع دخول النفط العربي لم يكن يبلغ نصف مليار دولار ، وهو يزيد الان على الستين مليارا .

كانت جيوش مصر والاردن وسوريا لا تشكل خمسة بالمائة من عدد جيوش المواجهة اليوم . وكانت المشكلة الاساسية هي البحث عن السلاح ، لان الغرب كان يمتنع عن تسليح العرب ، بينما كانوا لا يفكرون بالاتجاه الى الشرق .

كنا نحسب ، حينئذ ، ان الاستعمار هو العائق الاوحد ـ او الاكبر ـ في سبيل الحرية والوحدة . وكنا نظن ان تبديل الحكام القدامى كفيل باحداث التغيير المنشود .

على ان اتوهم الكبير الذي كان يخيم على عقولنا هو التوق الى تحرير الوطن من دون تحرير المواطن !

لقد كنا نجهل ان الحرية كل لا يتجزأ ، وان تحرير الارض وارادة الجماعة لا يكفي ، اذا ما بقيت حرية الانسان مغلولة وارادة الفرد مشلولة .

* * *

رافقت « الآداب » رحلة ربع القرن تلك ، وحاولت ان تنفعل بها وتفعل . وقد تفردت هذه المجلة برفع راية الادب الملتزم ، اذ آثرت ان تكون لها قضية قومية وطنية، الى جانب قضية الابداع .

لم يكن في وسع « الآداب » ان تحول مسيرة الامة ، وقد عجزت القيادات التاريخية عن ذلك . على ان الصحيفة ـ في مفهوم الاعلام العصري ـ ليست اداة للتوجيه والارشاد ، بقدر ما هي مرآة للواقع .

كانت هذه المجلة منبرا رفيعا من منابر حركة التحرر القومي . وقد تعثرت ، مثلما تعثرت آدابنا والفنون ، بل الثقافة نفسها والحضارة كلها ، تبعا لتعثر الحركة القومية الصاعدة الهابطة .

وماذا تستطيع الصحيفة المناضلة ان تفعل ، عندما تقفل امامها الحدود وتسد في وجهها الابواب ؟

بل ماذا يفعل القلم ، حينما تتساقط القذائف والحمم ، وتتصاعد السنة اللهيب لتحرق الاشخاص والاشياء ، وتأتي على خفقات الحياة والاحياء ؟!

* * *

شهد جيلنا ، في ربع القرن المنقضي ، من الاحداث ما لم يشهده اي جيل مضى . ولقد صعدنا الى قمة الزهو ، ثم سقطنا الى حضيض المهانة .

في البدء ، كانت امكاناتنا قليلة، وكانت قوانا ضئيلة، ولكن طموحنا كان اعظم ، واملنا كان اكبر !

كنا نحسب ان جلاء الاجنبي عن ارضنا كفيل بتحرير ارادتنا ، وان استقلالنا الوطني مرادف لانطلاق العزة والكرامة .

وكان في حسباننا ان تدفق الثروة على بلادنا سيغني نفوسنا ويعزز منعة الامة ويحقق وحدتها .

ولكن طموحنا الساذج لم يلبث ان فجع ، ونكبنا حتى في طموحنا . ذلك لاننا لم نعن بالانسان .

ولقد اتضح اخيرا ، لكل ذي بصيرة ، ان كرامة الانسان ليست ادنى من كرامة أرضه ، وان حرية المواطن ليست اقل شأنا من حرية الوطن .

فهل لنا ان نتجه بآدابنا في هذا السبيل ؟

وهل لنا ان نلتزم بتحرير الفرد ، بعدما التزمنا بتحرير الجماعة ؟

اذ من حقنا ـ ونحن نكافح في سبيل هذه الامة ـ ان نغدو مجموعة احرار ، لا قطيعا حرا !

بيروت